

التخريج الأسلوبي لمعنى الخطاب الواصف لدى عبد القادر فيدوح:

أ.د طاطة بن قرماز

tatabenguermaz@yahoo.fr

جامعة الشلف / الجزائر

الملخص :

يحتكم الناقد عبد القادر فيدوح على مهارة لغوية وأسلوبية قادته إلى التحكم الطوعي للغة ، أسعفته على شقّ موضوعات شائكة ، لاسيما موضوع الخطاب الواصف الذي شكّل وعورة أو اعتياصا لدى الباحثين ، فيجد الباحث نفسه منقادا إلى أسلوب الناقد منبها بأفكاره الموسومة بمدارك نفسية و فلسفية ، إذ ينطلق في ثنايا كتاب الخطاب الواصف ومؤولاته في الشعر العربي المعاصر ليكشف لأول مرة معنى الخطاب الواصف بكلّ وضوح وإلمام شامل بمدلوله ، ويمكننا القول بكلّ مسؤولية : إنّ الناقد فيدوح له فضل السبق والريادة في مجال التلقي بجهوده التأويلية التي بذلها من أجل إيصال فكرة الخطاب الواصف وما يستتبعها من مفاهيم كاللغة الواصفة ، والخطاب المضمر واللغة الصمت ، وغيرها من المفاهيم التي زادت من عمق فهمنا لدلالة الخطاب الواصف عند عبد القادر فيدوح .

الكلمات المفتاحية : الخطاب الواصف ، التأويل ، اللغة المضمر ، المسكوت عنه ، الترميز ، الموصوف .

Abstract

The critic Abd al-Qadir Faydouh invokes a linguistic and stylistic skill that led him to the voluntary control of the language, which helped him to break through complicated issues, especially the subject of the descriptive discourse, which was difficult or difficult for the researchers. The researcher finds himself

directed to the critic's style, fascinated by his thoughts marked by psychological and philosophical perceptions. It begins in the folds of the book: "the descriptive discourse and its interpretations in contemporary Arabic poetry" to reveal for the first time the meaning of the descriptive discourse with clarity and a comprehensive knowledge of its meaning. And we can say with full responsibility: The critic praises him for being the pioneer in the field of reception, with his interpretive efforts that he made in order to convey the idea of the descriptive discourse and the concepts that follow from it, such as the descriptive language, implicit discourse, silence language, and other concepts that increased the depth of our understanding of the descriptive discourse of Abdul Qadir Faydouh.

Keywords: descriptive discourse, interpretation, implicit language, the unspoken, coding, described.

توطئة:

إنّ سرورا غمري وأنا أتواصل مع أستاذنا الفاضل والناقد الأكاديمي عبد القادر فيدوح بخصوص إمكانية تقديم محاضرة تكوينية لفائدة طلبة دكتوراه مخبر نظرية اللغة الوظيفية بكلية الآداب والفنون ، جامعة الشلف، وقد أبدى الموافقة بكلّ تواضع ولباقة ، حيث برمج المخبر الندوة العلمية التكوينية يوم 19 ديسمبر 2022، وقد ساهم الناقد بجهد جهيد في تكوينهم، استفادوا من منهجه ومما عرضه حضوريا أمامهم من آليات وطرائق لتحليل النصوص الشعرية .

وللناقد مؤلف عنوانه: الخطاب الواصف ومؤولاته في الشعر العربي المعاصر ، عاج فيه معنى الخطاب الواصف بإسهاب وتمحيص واستدلال .

إنّ المتصفح لجنبات الكتاب بإنعام يلفي منزعا نفسيا فلسفيا يتوارى خلف أفكاره ، مما جعل الكتاب يتسم بزخم فكري فلسفي عارم ، مما يحفز نشاط القارئ على اكتشاف مرامي النقد الفلسفية التي توجّح بها أسلوب المؤلف.

إنّ الكلام يبقى حبيس نفسه صامتا إلّا إذا ناجى الصامت نفسه مستعملا أداة اللغة في رأي عبد القادر فيدوح النقدي مما يستوجب آلية استنطاقه ، "...ولعل هذا ما جعلنا نقرّ بأن المضمّر الصامت بحدس بنية ذهنية

من نبع كمن العقل ، وإن الفكرة تنبثق من هذا الاختباء الذي لا يحمل معنى إلا بعد أن يتعين في اللغة ، كونها تجسّد أناة الفكرة ¹:...¹، فالصامت لدى الناقد فيدوح يبقى قيد الضمور مالم يناجي المتكلم نفسه وصمته معا موظفا أدوات اللغة ، واللغة وسيلة قمينة باستنطاق الصامت وإظهار المصموت عنه .

و إيّ أقرّ عند اطلاعي لصفحات من الكتاب لأول وهلة كمن كان يحاول شقّ صدفه ولم يفلح ، إلا أنّ شغفي وتشوّفي العارمين بأسرار لغته وأسلوبه جعلني أعاود القراءة فيه بالنظر والإجالة ، فوجدت الكتاب نفيس اللّغة، عنفواني الأسلوب، تتزاحم في ثناياه معرفة زاخمة، تفاضل الناقد فيها عن مجاليه بجوهر بيانه وفُرادة أسلوبه و سمو لغته ، والانسان كما نعته عبد القاهر الجرجاني يمتاز بالعلم، وإتّما العلم بالتعلّم و والتعلّم باللغة واللغات تتفاضل في حقيقتها وجوهرها بالبيان بتأديّة المعني على وجه أدعى إلى التأثير في النفس ² .، وإننا نشيد بفضل الناقد عبد القادر فيدوح الكبير غوصه على أسرار اللغة وسبقه إلى وضع مفاهيم ومصطلحات جديدة ، أضيفت إلى رصيد مفاهيم النقد الأدبي الحديث ، فقد سلك الناقد مسلك الإبداع في تدوير اللغة وفي تسنين إرسالياتها .

فكتاب الخطاب الواصف للناقد فيدوح يعدّ خطابا واصفا بدوره، وإنّ اللغة التي وظّفها توحى بإضمار ، فهي لغة أكاديمية عالية المستوى، بلغت درجة من الوسم و الرفعة ، فجاءت فياضة الدلالات مستعززة الترميزات مما كفلت له الفرادة والتميّز ، لأنها تقف خلف أسلوبه الماتع الرفيع ، " أما الأسلوب فهو الإنسان عينه لذلك تعذر انتزاعه أو تحويله أو سلخه " ³ ، فكان الأسلوب رفيعا مثل شخصيته و ثقافته وطباعه ، وهذا هو الأسلوب الذي قصده جورج بيفون Georges Buffo ، حينما قال : الأسلوب هو الرجل نفسه ، إذ قصد الأسلوب الرفيع الذي يغدو علّما على صاحبه على مرّ الأعصر .

إنّ لغة الناقد عبد القادر فيدوح عميقة بمدلولاتها الثقافية الرصينة ، من حيث تمكّن من الإلمام بالتراث والحداثة معا، فقد ألمّ الناقد بالثقافتين التراثية والمعاصرة ، وأصّل للمصطلح النقدي ، وقرأ توظيفه حدائيا وفي التراث، كما قرن صور المعلومات في كتاب الخطاب الواصف بصور تفصيلية إجرائية من الشعر.

¹ عبد القادر فيدوح ، الخطاب الواصف ومؤولاته في الشعر العربي المعاصر ، كنوز المعرفة، 2022، ص:9، 8.

² ينظر عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص:9.

³ عبد السلام المسدي ، الأسلوبية والأسلوب ، ط:5 دار الكتاب الجديد المتحدة ،

أقول وبكل صدق ودون مغالاة: إنّي اكتشفت لأول مرة جوهر معنى التلقي في هذا الكتاب ، فقد سرد الناقد مبادئ نشوء الفكرة من خلال ما أسماه ببداءة الفكرة، وهي مرحلة الإرهاص الأولى للمعنى قبل أن يتجلى لغويا شاخصا ماثلا ، فكان كتاب الخطاب الواصف ومؤولاته في الشعر العربي المعاصر أول دعوة إلى تفاعل القارئ مع الصامت ، وتفاعل القول مع اللامقول وتفاعل البياض مع المرقم ، وهي دعوة أيضا إلى النظر في أوليات الإبداع في غير المحسوس ، فكان الكتاب مفصلا لمعنى الصامت والمضمر ، وهو بمثابة ومضة برق أنارت طريق القراء والباحثين في مجال التلقي و سير أغوار الإضمار ، لأن الناقد رأى أن هذا الجانب من الدراسة غيب تماما ، والاشتغال كان بالإبداع الفعلي وليس بما سبق مرحلة الابداع ، فكان هذا الكتاب أول صدع في الساحة النقدية الحديثة لمعنى فنيات التلقي .

إنّ من يقرأ كتاب الخطاب الواصف ومؤولاته في الشعر العربي المعاصر لعبد القادر فيدوح يلفي جمعه بين الأسلوبيتين : أسلوبية الإنتاج وأسلوبية التلقي ، وكان جورج مولينييه Georges mouliné بادر إلى هذا التقسيم للأسلوبية وسبقا إليه⁴ ، أما الناقد فيدوح فقد تناول مميزات الخطاب المضمر أو الواصف باعتباره نتاجا فنيا خالصا ، إلا أن أسلوبية التلقي حاضرة بشدّة في جنبات الكتاب، من حيث أولى اهتماما بالقارئ باعتباره متلقيا لهذا الانتاج ، وعليه أن يعيد إنتاجه بتأمّله ومن ثم فكّ شيفراته واستظهار ما بتر من معنى أو ، ما يعرف لدى الناقد بالمعنى الافتراضي الذي يحدّد مواقع الخطاب المضمر ويقوم باستكمال و استيفاء المعنى المنقوص في الخطاب ، فالكتاب اتسم بسحر خاصّ لأن الناقد اتسم بدوره بمجازفة علمية خارقة ناوش فيها مبادئ التلقي وأغواره.

لن تستطيع اللغة أن تحاكي مكونات النفس محاكاة مشاكلة مطابقة لها، فالحواس تتكلم دفعة واحدة متجاوبة، معبّرة عن المشهد الذي تراه أمامها ، فما يعجب العين يؤنس النفس وما يطرب الأذن يمتّع النفس، وما يلاطف اليد يبهج النفس أيضا ، وما يستدّاق لسانيا يشرح النفس ، لذلك كلّ الحواس تتزاحم في ذهن المنشئ ، فينطق اللسان بتفويض رباني طبيعي وكأن اللسان هو من يمثّل الحواس كلّها للتعبير عن إحساسات العين والأذن واليد والقلب معا .

⁴ ينظر: جورج مولينييه ، الأسلوبية ، ترجمة بسان بركة ، ص:20.

لذلك اللغة تنقل الدواخل بشئ نسي و يبقى الكلام مكتوما بدواخل المنشئ غير مفصح عنه، ليس لأن الأديب أراد إضماره أو حجب عن المتلقي، وإنما حُجب عنه لأن العجز أو القصور يشترك فيه الطرفان: المنشئ واللغة معا، لقول عبد السلام المسدي، "وأزمات الحيوان الناطق مع أداة نطقه أزية صوّر ملحمتها الشعراء والأدباء مذ كانوا، وما الانزياح عندئذ سوى احتيال الإنسان على اللغة وعلى نفسه لسدّ قصوره وقصورها معا"⁵، فكثيرا ما تعترض المنشئ مطبات تحيل دون الإفصاح عن مشاعره، لذلك يلجأ إلى التحايل على اللغة لسدّ القصور الذي أصابه وأصابها، فيكون الانجراف نحو المؤلف مخرجه، بتوخيه لأساليب تشفير إرسالياته اللغوية .

يعدّ كتاب الخطاب الواصف ومؤولاته في الشعر العربي المعاصر ممارسة أسلوبية تطبيقية تختصّ بالوقوف عند محور الإطار التأويلي⁶، الذي يركز على دراسة الوظيفة الشعرية، وهذه الوظيفة هي المتمركزة حول قصد الإرسالية التي تحدّد الجانب الملموس من الدلائل⁷، والأسلوبية في نهاية الأمر كما ينعتها جورج مولينه أسلوبية تلق⁸، لأنها تهتم في المقام الأول بعملية التواصل، فيكون القارئ مفككا للرموز اللغوية إصابة لحسن الفهم، وفي الكتاب دعوة إلى تأويل النصّ واستقراء خفاياه .

كما يعدّ كتاب الخطاب الواصف لعبد القادر فيدوح نقدا ظريفا في مضامينه، وهو ينحو بذلك منحى الأسلوبية من حيث جمع فيه بين محدوسات المنشئ وبين الجوانب الموضوعية الدالة عليها في الخطاب الأدبي، وبذلك يتشاطر الناقد عبد القادر فيدوح الرأي مع الناقد الأسلوبي جورج مولينه في مسألة وظيفة التحقيق الأسلوبي لإبداع معين، وبين مبدأ نفسي جمالي فردي، والفردي هو السحر الخاص بكلّ عمل أدبي حسب رأي جورج مولينه .

وإنّ أشهر ممثل لهذه الممارسة الأسلوبية الناقد الأسلوبي leo spitzer ليو سبتزر، القائل بتعدّد القراءات وتسلسلها لاكتشاف تفصيل شكلي أو عادة لغوية أو خاصية كلامية تلفت انتباه القارئ هو الأثر المهيمن الذي ينطبع به القارئ، بحيث يصل الناقد إلى هذه الخاصية بواسطة "قراءات متكررة ومتتالية ينطلق الناقد

⁵ عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص: 84.

⁶ ينظر جورج مولينه، ص: 19.

⁷ ينظر ميكائيل ريفاتر، معايير تحليل الأسلوب، ترجمة حميد لحميداني، ص: 69.

⁸ ينظر جورج موليتيه، نفسه، ص: 21.

في العملية الثانية وهي تتم كذلك في سلسلة من القراءات المتتالية للنص ذاته يتعلّق الأمر هنا باكتشاف تفصيل شكلي ، أو عادة لغوية ، أو خاصية كلامية تلفت انتباه القارئ من حيث هي سمة متكررة في العمل من جهة ، ومن جهة هي ترتبط بالانطباع المهيمن ...⁹ ، ومنهجية سبتر تحتاج وفق رأي جورج مولينه إلى بطولة علمية تتطلبها ممارسة أسلوبية تكون قيمة بتحليل ترميزات خطوط النصّ الثقافية والنفسية فهي ترميزات أسلوبية¹⁰ ، من حيث هي مكونات لغوية محدّدة في النسيج النصّي للعمل الأدبي .

وقد ألقينا قاسما مشتركا بين منهج عبد القادر فيدوح والناقد ليو سبتر والأسلوب الفدّ جورج مولينه ، حين قال فيدوح: " وحتى يكون النصّ متاحا للفهم من قبل المتلقي يفترض أن تكون هناك قرينة دالة على كشف ملكة تبصّره في كل ما هو مستتر في المتن ، أو في عمق تفاصيل الوظائف الدالة التي يتمّ من خلالها إدراك الإسنادات المجازية أو فيما يشير إليه المعنى الدلالي إلى إحالة كل خاصية في النصّ ، بوصفها أداة نعثر عليها في العلامات الدالة على كل نسق من الأنساق الكامن منها والجلي ...¹¹ ، يجيء النصّ غامضا معتما في متنه والقارئ لا يجيد فهمه إلاّ إذا توسّل بعلامات أو مفاتيح غموضه التي يتحصل عليها من ثنايا النصّ، وتلك العلامات تكون عبارة عن إسنادات مجازية تكون في شكل صور شعرية، استعمالات مجازية أو كناية ، تشبيهات تقتن بالاستعارات ... لتصبح خاصية في النصّ يعثر عليها القارئ بفطنته وثقافته ، ويشير الناقد إلى أن بنية العلامة اللغوية تكون بمثابة الخيط الرفيع الذي يمسك به القارئ، بقوله : " إذ إنّ بنية أي علامة توفر خيطا رفيعا من صوغ الاشارة الدالة ، وبذلك يتعاوض المعنى الجلي بالخفي ، بما في ذلك ما يكون في المسكوت عنه ، حين تقتن اللغة بنفسها ، بحسب نظام شفري معين "¹² ، ولكي يقف القارئ على الظاهر المكشوف يتوجب عليه البحث عن بنية العلامة اللغوية الدالة عليه التي تحيله إلى المستتر المعيّب ، وعندها يرى فيدوح أن اللغة تقتن بنفسها أي يقتن الظاهر بالخفي من اللغة الذي لم يكن ظاهرا في متن النصّ ، وهذا يعني أنّ جوهر اللغة يبقى قابعا في النصّ إلى أن يكتشفه القارئ بواسطة خاصية دالة عليه .

⁹ : السابق، ص: 74، 75.

¹⁰ ينظر ، نفسه ، ص: 79.

¹¹ نفسه ، ص : 55.

¹² عبد القادر فيدوح ، الخطاب الواصف ، ص: 48.

إنّ الشراكة المنهجية بين الناقد فيدوحو وليو سبتزر leo spitzer وميكائيل ريفاتير Michael riffaterre الممثل الأملع للأسلوبية السياقية تكمن في الخاصة التي يعثر عليها في النصّ ، والعثور لا يكون إلاّ بتأمل وإعمال للروية وإجالة للتفكير ، لذلك يُخضع الناقد النصّ للبحث والتنقيب بطريقة بوليسية ، وهو ما يعرف بالقراءات المتتالية واكتشاف الخاصة الكلامية التي نادى بها ناقد الأسلوبية النفسية ليو سبتزر وهو ماورد لدى الناقد فيدوحو بمفهوم الخيط الرفيع ، أوبالإسنادات المجازية التي تعدّ أدوات تعبيرية تحيل القارئ إلى أنّها علامات مشقّرة ، ترد عند ميكائيل ريفاتير بمعنى صيغ المبالغة أو بكسر السياق الأسلوبي، مراعيًا دلالة كلّ كلمة فيه.¹³ ، المخالف لنمطية التعبير .

يقول عبد القادر فيدوحو: " إن دراستنا هذه لا تقف عند البحث عن المعنى في النصّ أو ذاك بقدر ما تبحث عن مقدار فهم الخطاب المضمّر ، لتقريب المعنى من وراء توظيف اللغة الواصفة كما أننا في هذا المقام لا نحلل النصّ ، بقدر ما نعيد كتابة النصّ بأداء تأملي ، من منظور أنّ الفكرة غالبًا ما تكون مدعاة لأداة صورة الدال المتوهجة في الصورة الإبداعية ، ومن ثمّ فإنّ هذا التحليل لا يقدم معنى لسياق النسق التفاضلي للمدلول ، بل يلتمس من المتلقي إمعان النظر في تقصي المسكوت عنه في مضمّر النصّ ، المتنكر بقناعات مستعارة"¹⁴ يستبعد الناقد الوقوف عند المعنى أو تحليل النصّ وإثما غايته تكمن في كيفية إعادة كتابة النصّ بغاية تأملية ، لأنّ الفكرة تتحول إلى صورة شاخصة ، وهي صورة إبداعية تتمهّر في ترجمتها الذات المنشئة ، كما أنّ المطلوب من المتلقي أثناء تحليله النصّ ليس الوقوف على أنساقه المتفاضلة فيما بينها ، وإثما هو مطالب بتقصّي المسكوت عنه الذي أضحي خفيا بقناع مستعار يومي إلى تقنّعه .

إنّ تقصّي المسكوت عنه يعدّ تحليلا أسلوبيا يروم إلى ملاحظة و كشف واقعة أسلوبية ما لدى ميكائيل ريفاتير وهو ما بادر إليه فيدوحو من خلال رأيه في النقاد الذين يتيهون في التحليل الشكلي فقط من أجل تأكيد أو إبطال تقويماتهم الجمالية ، والمطلوب هو ملاحظة الوقائع لا إنتاج أحكام القيمة ، ومن هذا المنطلق يؤكد عبد القادر فيدوحو أنّ المتلقي يلتمس منه إمعان النظر في تقصي المسكوت عنه في مضمّر النصّ بقناعات مستعارة وبإعادة كتابة النصّ بأداء تثبتي تأملي، تأويلي، بعيدا عن احتواء اللغة للفكرة أ المعنى .

¹³ ينظر: ميكائيل ريفاتير معايير التحليل الأسلوبي ، ترجمة حميد الحمداني ، ط:1 منشورات ، دراسات سال 1993،

ص61.

¹⁴ عبد القادر فيدوحو ، الخطاب الواصف ، ص:17.

تمثل الفكرة الحضور المتعالي في اللغة من منظور عبد القادر فيدوح ، فهي أي الفكرة تخضع لتأملات الذات المبدعة ، وهي بذلك مرآة صاقلة لمكانم الخيال، واللغة تولد من حاضنة التفكير .

يخضع الابداع لأوليات التفكير ، وهذا يعني أن الإبداع يسبق اللّغة ، وأن للإبداع لغة في الفكر فليس الإبداع محصورا على كيفية توظيف اللغة أو استحضارها أو تديبها فحسب، وإنما ينطلق الإبداع من الارهاصات الأولية التأملية التي تحدثها الذات المبدعة في شكل مناورة للفكرة قبل بلوغها مرحلة التجسيد اللغوي ، فالدال من منظور عبد القادر فيدوح¹⁵ يكون غير لغوي ، حيث تعيش الفكرة حالة من التجريد اللغوي ، لذلك يطرح الناقد سؤالا : هل المعنى الدلالي في متن النص هو المبتغى، أو هو المعنى الذي يحيلك إلى مستور المضمّر؟ ، يرى الناقد أن نظام الخطاب الواصف يقف على بدء الفكرة الكامنة في لاوعي المبدع قبل الإفصاح عنها ، وهي بذلك تصبح لغة أولى قبل الثانية الظاهرة في النصّ ، يشترك الحدس في عملية اكتشافها وتأويلها ، وكذا حالة اللاوعي في نظام الدوال اللغوية ، بما يتناسب مع كفاءة المبدع التعبيرية .

كما يرى الناقد أنّ بدء الفكرة غالبا ما تكون مضلّلة أمام الدال اللغوي ، وأنّ المبدع هو من يخفيها لسبب قد يتعلق بعدم انسجامها مع الدال اللغوي ، لأن بدء الفكرة تعدّ وعيا استبصاريا ، متعلقة بسريرة المنشئ، ولكي تنتقل الفكرة من الطويّة إلى دال لغوي ملموس تستلزم من المتلقي حنكة تأويلها واستبصارها واعتاقها من مضمّرات النصّ ، كما أن ميزة المضمّر في عرف فيدوح التأويلي تكمن في أنه يأتي على القول في اللامقول ، ودون أي إشارة تفصح عن المفكر فيه ، لأن استبطان الأفكار جزء من التركيبة الذهنية للمنشئ¹⁶ ، لذلك يلاحظ الناقد أنّ النقد الأدبي قصّر أو غيّب تحويل بدء الفكرة باعتبارها منبثا خصبا لنشأة لغة الخطاب إذ تأتي بدء الفكرة لدى فيدوح كبذرة أولية مُرهِصَة للخطاب الواصف أو للمعنى المستتر ، لأنها تتشكل في ذهن المنشئ وتبقى بحاجة إلى زيادة لغوية، ليتمّ الإعراب عنها واستيفاء معانيها، لذلك يتبين للقارئ أن بدء الفكرة تأتي كبديل مفهوماتي لمعنى اللغة الواصفة أو لمعنى المسكوت عنه ، إذ تتجلى بدء الفكرة في النصّ غير مكتملة وبما أنّها بحاجة إلى حاضنة تحضنها تترامى على أطراف النصّ فتومئ بشئ بقي ناقصا ، شكّل مضمرا بناء على عملية تلقيها.

¹⁵ ينظر السابق ، ص:13.

¹⁶ ينظر نفسه ، ص:11

فالقارئ من منظور عبد القادر فيدوح إذن موكول إليه بوظيفة التأويل بحدس متوجّج بخبرة و بحنكة و عبقرية وتجربة ، وله مسؤولية استبصارها رغم شفافيته ، فالفكرة غير مرئية واعتاقها يكون من قبل القارئ من عتق الضمور و قيد التخفي، لذلك يأتي مفهوم الخطاب الواصف مرادفا للخطاب المضمّر لديه : وهو الذي ينشئ خطابا لنفسه بعيدا عن استعمال اللغة.

استعمل الناقد مفاهيم من مثل : الضمّر الصامت : ويقصد به الإرهاص المبدئي لأوليات للتفكير ، فالتلقي يصادر إرهاصات التفكير من منظوره وينشغل بالنصّ وبما هو موجود بين يدي القارئ ، أو بما هو واضح المعالم في النصّ ، كما أن مصطلح الخطاب الواصف/ المضمّر، يأتي رديفا للغة الواصفة، لدى الناقد ، و هو جزء من عناصر السنن، إذ يحاول المتلقي كشف مستوره من خلال السعي إلى تلمّس الفكرة قبل أن تحتويها اللغة في بداءتها، أي في مرحلة تشكّلها الجنيني واكتشاف أوجه الدلالات التي تقع خارج اللغة، وهذا ما يدفع بالمتلقي إلى التفاضل بين اختبار حيوية اللغة في التحليل، واختبار حيوية الوعي؛ لاكتشاف منظومة الذات المبدعة، التي تشكل رؤيتها قبل الإفصاح عنها من جراء العلائق الدلالية التعاقبية.

تكاد نظرة الناقد فيدوح المتعلقة بعناصر السنن التي تعدّ جزءا من مصطلح الخطاب الواصف تتفق مع رؤية ريفاتر القائلة بأن مهمة الأسلوبية لديه هي دراسة اللغة من زاوية نظر مفكّك السنن¹⁷ ، مادامت ردود أفعاله وفرضياته حول مقاصد المسنن، وكذلك أحكام القيمة هي إجابات على المنبهات المسننة داخل المتواليات اللفظية وستصبح الأسلوبية في هذه الحالة علما لسانيا لتأثيرات الارسالية ولمردودية فعل التواصل ولوظيفة الاكراه¹⁸ ، التي تمارسها على انتباهنا ، حيث يلحظ القارئ هذا التشارك في الحسنّ النقدي بينهما جليا، عندما يتوسّل الناقد فيدوح برأي كمال يوسف الحاج القائل : " إذا كان الفكر أسبق من اللغة ، فإن اللغة تبين ما في الفكر من معنى ، وتؤطر مساره النسقي ، إذ لا وجود للغة إلا وراءها فكر ، نحن نؤمن بأن التفكير والتعبير شيء واحد .. نؤمن بأن اللغة وجدان ناطق ، وبأن الوجدان لغة صامتة ، لا فرق بينهما..."¹⁹ ، يستند الناقد إلى هذا الرأي الذي يكشف بأن التفكير والتعبير شيء واحد والأسلوب هو التعبير عن معالم الروح في الدراسات الحديثة ،

¹⁷ ينظر ميكائيل ريفاتر، معايير تحليل الأسلوب ، ص: 59.

¹⁸ ينظر لايفاتر معايير تحليل الاسلوب ، ترجمة حميد لحميداني ، ص: 41.

¹⁹ ينظر عبد القادر فيدوح المصدر السابق ، ص: 14.

واللغة ملازمة للأسلوب وعليه يصبح التعبير شاخصا في اللغة والأسلوب معا ، وهما ترجمان للتفكير، كما أن الباحث يوسف الحاج جعل من اللغة وجدانا ناطقا ، والوجدان لغة صامتة ، واللغة بهذا التوصيف تصبح وجدانا ناطقا وصامتا في الوقت ذاته لأنها تستنطق الوجدان ، وتعبر عنه فتكون هي الوسيلة القمينة بإظهار الوجدان إلى العيان.

يعتمد الناقد فيدوح الرأي السابق ويدعمه فتصبح لغة الصمت عنده بشكل أدق وهو ما يدخل ضمن سياق ما يمكن أن نطلق عليه بالمضمر الواصف / الموصوف ، أي الخطاب باللغة الضمنية التي يمكن إدغامها تجوزا مع ما أطلقت عليه الدراسات الحديثة باللغة الواصفة لا تخلو من دراسة اللغة الضمنية ، واللغة الواصفة إذن حسب رأي الناقد فيدوح هي التي تتكفل بدراسة الضمني المغيّب في متن النصّ من لغة بقيت حبيسة الفكر والوجدان .

يقوم الخطاب الواصف لدى فيدوح بوظيفتين حيويتين متعاضدتين ، : هما وظيفة الابداع ، ووظيفة تأمل هذا الابداع ، فالإبداع هو الوظيفة الأولى الذي ينتجه الفكر والتخييل معا، أما الوظيفة الثانية فهي تتميز بطابع تصوري عقلي : وعليه تصبح اللغة في عرف فيدوح الفلسفي لغتين : لغة إبداع ولغة تأمل هذا الابداع ، تشكلا معا لغة النصّ ، واللغة من منظور الناقد تغيب -في المضمر- في متن النصّ، وتحضر في بداءة الفكرة قبل التلّفظ بها ، فالناقد يصف حالة قبلية ، حالة تشكّل اللغة في الذهن " أي مضمر ما قبل الكتابة وتدبرها من الوهم الوصفي في بعض السياقات ، وبما تقتضيه الكناية من دون وجود عبارات لفظية ، حين نفهم المعنى بالظنّ والتخمين في غياب الكلمة ، لأن علامة ارتباط المعنى بالصورة الذهنية هي نفسها العلاقة التي تربط النظر بالإحساس الحدسي ، على خلاف العلاقة التي تربط الدلالة بالكلمة ، وما تعنيه هذه الأخيرة من معنى عن طريق الانعكاس الشرطي في اللغة المتواضع عليها"²⁰. فالإبداع يتشكل من اللغة التي تسبق الكتابة وهي لغة يمكن وصفها بالعفوية التنقيحية النفسية ، تتجلى في النصّ من دون لغة أو إشارات لفظية ، ثم تعقبها الوظيفة الثانية الشاخصة في إمكانية أن تصبح اللغة إقونة المستتر في النصّ ، وهو إجراء عقلائي يستلزم التثبيت والروية.

ميّز الناقد فيدوح بين المضمر الواصف / الموصوف ، وبين الخطاب الواصف ، فترسّخ في ذهنه بأن الأول يرسم المعنى بلغة الذهن والحدس معا ، أما الخطاب الواصف فيرسم المعنى بلغة الشيء بواسطة التأثير المدرك ، وإذا

²⁰ عبد القادر فيدوح ، الخطاب الواصف ، ص: 19..

كان الخطاب الأول يحصل تفاعله في النفس ويدرك بالصورة في الذهن عن طريق دلالة المجاز باستعمال الحدس ،أو كما اصطلاح عليه بالنبوءة ، فإن الصورة تدرك في الخطاب الواصف من خلال الدال ، بوصفها بنية لغوية ترتد على نفسها وتنثني على نفسها لتتأمل وظائفه²¹ .

استدل الناقد بقول الشاعر الأخطل في تبيان مدلول المضمّر²² :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ***جعل اللسان على الفؤاد دليلا

يحمل البيت الشعري مدلول الخطاب الواصف باستعمال الشاعر للفؤاد واللسان معا وأما الفؤاد فهو علامة على المضمّر ، وأما اللسان فهو إشارة على الحاضر الظاهر في متن النصّ ويمثلان أي الفؤاد واللسان لغة الإضمار ولغة الخطاب أو التخاطب ، وهما لغتان مترادفتان مشتركتان في الوظيفية، مختلفتان في الأداء الإجرائي . ، لأن المستمع يستشعر لغة اللسان إذا خرجت من قلب الباث ، فيصبح الكلام وفق تصوّر الشاعر وجدانا صامتا ينطق به اللسان . وقد جاء تحريج الناقد على النحو الآتي : " وقوله الكلام في الفؤاد . أراد به الاضمار ، وما اللسان إلا دليل على مسمى " الخطاب / التخاطب " في حين تتحقق الثانية بدلالة التركيب الصيغي في الأسلوب ، فالنصّ إما أن ينتج خطابا على وفق ما تمليه القواعد النحوية في شكل صيغ تعبيرية ..."²³ ، وبهذا التوضيح يغدو المضمّر محتجبا في القلب ، فيعمل اللسان على محاولة إظهاره بصياغته .

أثر محوري التحليل الأسلوبي في تمييز الخطاب الواصف :

يقول الناقد في تقسيمه للغة : " إنّ تقسيمنا للغة إلى لغة التركيب الصيغي ، ولغة الاضمار الضمني يتضافر مع ثنائية المحور الاستبدالي ، العمودي والمحور التوزيعي ، التركيبي ، الترابطي ، استبدال /توزيع لدى ferdinand de saussure.. وهي عبارة تمييز الكلام/الخطاب بين المجموعات اللغوية المتوافرة في الذاكرة paradigmatic و المجموعات اللغوية الحاضرة في الجملة ، syntagmatic وحتى تستوفي الخطاب شروطه يفترض بيان العلاقات التي تربط الوحدات اللغوية المتألقة ، وفي هذه الحالة لا بد من النظر في المحورين معا

²¹ ينظر السابق ، ص:19

²² نفسه ، ص:25.

²³ نفسه، ص:25.

²⁴، إذ يلعب المحوران دورا تفعيليا في تجاوب القارئ مع النصّ ، لأنه يتفاعل بما تمّ تحيّرّه من ملفوظات ، يتمّ رصّها بطريقة مخصوصة ، تنال استحسانا أسلوبيا من لدنه.

قسّم الناقد اللغة إلى لغتين: لغة التركيب الصيغي الظاهرة في النصّ ولغة الاضمار الخفية القابعة في ذهن أو مخيلة المبدع ، إذ مثلّ للغتين بالمحور الاستبدالي والمحور النظمي ، فالاستبدالي يشترط عملية الانتقاء بين المفردات المتاحة قبل أن ترقّم في النصّ، والنظمي تتم فيه عملية التنسيق تلك الخيارات ، بعد التخيّر النفسي ، مثل الناقد للغة النصّ الظاهرة ولغة الإضمار الضمنية بمحور الاستبدال، ومحور التركيب اللسانيين وهما من محاور التحليل الأسلوبي ، فاللغة في المحور الاستبدالي تكون محل اختيار واستحضار ومناورة للذهن في انتقاء الأفضل والأنسب من المفردات اللغوية التي يستطيع بعضها أن يحلّ محلّ بعضها في المتوالية التعبيرية ضمن إطار النمط الدلالي ، دون الإخلال بنظامها النحوي العام ، لذلك تعدّ هذه المرحلة مرحلة إرهاب اللغة.

يقرن الناقد لغة الإضمار بالمحور الاستبدالي من خلال علاقات استبدالية ، غيبية يتحدّد الحاضر منها بالغائب ، أمّا لغة التركيب الصيغي فهي متعلقة بالمحور النظمي ، أو بالعلاقات النظمية ، وهي علاقات حضورية ركنية تمثل الانجاز الفعلي لسلسلة الكلام البعيدة عن العفوية والاعتباط ، ومن هنا يأتي اعتماد بناء النصّ الإبداعي على المعادلات الكلامية تبعا لمبدأ التجاور والتضاد²⁵ ، الذي تكفل للخطاب توازنه الأسلوبي والايقاعي ، ويتحقق انبصامه الجمالي بإسقاط أحدها على الثاني إسقاطا متناغما استبدالا وتوزيعا.

كما يربط الناقد فيدوح المضمّر الواصف بالجانب الوجداني ، والجانب الوجداني يكون محتجبا، كامنا وراء الخطاب المعلن ، فالمصمت وجداني بصورة ما ، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن خطاب الناقد ينزع منزع أسلوبية التأثيرات التي نافح عنها الأسلوبي تشارل بالي Bally Charles ، stylistique des effets ، حين جعل من وظيفة الأسلوبية وظيفه انفعالية تأثيرية تعبّر عن الملمح العاطفي للغة ، فعرفّ الأسلوبية بأنها "العلم الذي يدرس وقائع التعبير اللغوي من ناحية محتواها العاطفي أي أن التعبير عن واقع الحساسية الشعورية من خلال اللغة

²⁴ عبد القادر فيدوح ، ص: 26.

²⁵ جورج مولينييه ، الأسلوبية ، ص: 10.

وواقع اللغة عبر هذه الحساسية²⁶، تُظهر اللغة عمل الوجدان فتكون آلة لترجمته . فاللغة تتضمن المحتوى العاطفي أو جانبا منه وهو الجانب المؤثر في الذات المتلقية سواء بتنغيمه أو بجملة الأحاسيس التي يتأبطها.

يمكن القول بعد عرض عقل الناقد التأويلي في ورقات بحث التخريج الأسلوبي لمعنى الخطاب الواصف لدى عبد القادر فيدوح : إنّ الناقد شقّ طريقا حادئا في زمانه أضحت علّما على شخصيته الناقدة وثقافته وأسلوبه فكان عمله اجتهادا متفردا لم يخطّه أحد قبله، وما بادر إليه من طرح رؤى نقدية ستبقى سراجا منيرا لكلّ من يسرّ الله له طلب المعرفة والكشف عن بلاغة الشعر ومضمراته ، وعن كشف جوهر معنى جمالية التلقي، والخوض في معترك الخطاب الواصف المضمّر واللغة الواصفة ، وما يستتبعها من مصطلحات ومفاهيم حديثة محدثة كانت من ابتكاره في مجال الخطاب الواصف ومضمراته ، حيث أضحى كتاب الخطاب الواصف ومؤولاته في الشعر العربي المعاصر مرجعا أساسيا لكلّ باحث غاب عنه أو استعصى عليه فهم معنى هذا الخطاب فهما دقيقا صحيحا .

²⁶ صلاح فضل ، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، ط:3، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، 1988، ص:26

نفسه ، ص:20.

مراجع البحث :

- عبد القادر فيدوح ، الخطاب الواصف و مؤولاته في الشعر العربي المعاصر ، كنوز المعرفة، 2022.
- عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، دار المعرفة بيروت ، لبنان .
- عبد السلام المسدي ، الأسلوبية والأسلوب ، ط:5 دار الكتاب الجديد المتحدة .
- جورج مولينيه، الأسلوبية ، ترجمة بسام بركة ، ط:2 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 2006 .
- ميكائيل ريفاتر، معايير التحليل الأسلوبي ، ترجمة حميد الحمداني ، ط:1 منشورات ، دراسات سال ، دار النجاح الجديدة البيضاء.
- صلاح فضل ، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، ط:3، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، 1988.